

رَضَخَ زَوْجِي بَعْدَ طَوِيلِ صِرَاعٍ أَنْ يَسْتَدِينَ لِنُسَافِرِ هَذَا الصَّيْفِ. تَعَبْتُ بِالصَّبْرِ وَطَوِيلِ الْبَالِ. كَالْعَادَةِ! لَمْ أَكُنْ مِنْ أَوْلَئِكَ النَّسَوَةِ الْآثِي يَنْسَنُ بِسُرْعَةٍ. كُنْتُ أَمْلِكُ سِدَادَتَهُ وَمِفَاتِيحَهُ بِيَدِي. الْوُحْ بِهَا مَتَى أَشَاءُ وَكَيْفَمَا أَشَاءُ. مَرَحَبًا بِكُمْ عَلَى خُطُوطِ الطَّيْرَانِ الْمَالِيزِيِّ. حِينَ حَلَقْتُ بِنَا الطَّائِرَةُ اسْتَرَحَيْتُ عَلَى الْكُرْسِيِّ. شَعَرْتُ بِالرَّاحَةِ الْعَمِيقَةِ بَعْدَ قَلْقٍ عَظِيمٍ. كُنْتُ خَائِفَةً أَنْ تَشْمَتَ بِي جَارَاتِي وَصَدِيقَاتِي حِينَ يُلْغِي زَوْجِي فِكْرَةَ السَّفَرِ مِنْ أَجْنَدَتِهِ. مُحْتَارٌ إِلَى أَيْنَ يُسَافِرُ بِي!! - هَلْ سَافَرْتُ إِحْدَاكُنَّ إِلَى بَلْجِيكَا أَوْ مَالِيزِيَا؟ مُحْتَارَةٌ بَيْنَهُمَا؟ كُنْتُ أَعْرِفُ أَلَّا ظُرُوفُهُنَّ وَلَا ظُرُوفِي تَسْمَحُ بِالسَّفَرِ حَتَّى إِلَى (صَلَالَةٍ) فِي عُمان. وَلَكِنْ طَعَمَ الذَّهَبِ الَّذِي هَرَسْتَنِي بِهِ جَارَتِي (عَلِيَاءُ) أَشْعَلَ قَلْبِي، كَانَ يَوْمًا كَسِيفًا حِينَ جَاءَتْ وَهِيَ تَتْبَاهَى بِالطَّعْمِ وَتَتَعَمَّدُ بِمَنَاسِبَةٍ أَوْ دُونَهَا إِسْقَاطَ الشَّيْلَةِ وَالْعِبَاءَةَ لِيُظْهَرَ الطَّعْمُ مُتَرَبِّعًا عَلَى صَدْرِهَا الْمَكْشُوفِ أَكْثَرَ مِنَ اللَّازِمِ. تَلَمَّسْتُ يَدَايَ صَدْرِي الْعَارِي مِنَ الذَّهَبِ. لَتَشْتَعِلَ النَّيْرَانُ وَتَتَأَجَّجَ فِي صَدْرِي الْمَحْقُونِ بِالْغِيرَةِ. وَتَحَوَّلَتْ عَيْنَايَ إِلَى طَلَقَاتٍ نَارِيَّةٍ أَقْذِفُهَا فِي وَجْهِ عَلِيَاءَ. تَقَلَّبْتُ عَلَى جِمَرَاتِ الْفِكْرِ وَالتَّخْطِيطِ. لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ ضَرْبَتِي شَيْئًا مُخْتَلِفًا وَغَيْرَ مَعهودٍ بِالنِّسْبَةِ لِهَوْلَاءِ النَّسَوَةِ الثَّرَاثِرَاتِ. كُنْتُ أُرَدِّدُ عِبَارَةً وَاحِدَةً لَا غَيْرَهَا: ارْتَسَمَ الْإِنْدهَاشُ فِي وَجْهِهِ. قَالَ وَهُوَ يَعْضُ عَلَى شَفَتَيْهِ: كَانَ هُجُومًا لَا تَقِفُ أَمَامَهُ لَا الْمُدْرَعَاتُ الْحَرِيَّةُ وَلَا جَنَازِيرُهَا. وَلَكِنْ الَّذِي حَصَلَ أَنَّهُ رَفَعَ الرَّايَاتِ الْبَيْضَ وَالْحُمْرَ وَكُلَّ الْأَلْوَانِ، لَا أَصْدَقُ نَفْسِي!! كَمْ كُنْتُ أَحْلُمُ بِالسَّفَرِ الْبَعِيدِ وَالتَّجَوُّلِ حَوْلَ الْعَالَمِ. وَأَنْظُرُ إِلَى زَوْجِي الْفَقِيرِ، لِمَاذَا لَا تَتَحَقَّقُ أَحْلَامُنَا الْكَثِيرَةُ؟ مِنْذُ وَعَيْتُ عَلَى الدُّنْيَا وَأَحْلَامِي مَسْرُوقَةً أَوْ مَبْتُورَةً. حُلُمْتُ بِإِكْمَالِ دِرَاسَتِي وَأَنْ أَصْبِحَ طَبِيبَةً مَشْهُورَةً، لَكِنْ رُسُوبِي الْمُتَكَرِّرَ زَجَّ بِي بَيْنَ جُدرانِ بَيْتِي الْكُتَيْبِ. تَخَيَّلْتُ زَوْجَ الْمُسْتَقْبَلِ غَنِيًّا سَيَحْمِلُنِي عَلَى كُفُوفِ الرَّاحَةِ فَإِذَا أَنَا خَادِمَةٌ فِي بَيْتِ أَبِيهِ الْكَبِيرِ. رَضِيتُ بِهِ وَأَرْدْتُهُ زَوْجًا يَصْنَعُ مِنَ الْمُتَعِ الصَّغِيرَةِ أَفْرَاحًا كَبِيرَةً فَإِذَا بِهِ لَا يَعْرِفُ شَرْقَ الْأَرْضِ مِنْ غَرْبِهَا. وَلَا يَمْلِكُ سِوَى قَلْبِ طَبِيبٍ لِلْغَايَةِ. إِلَّا هَذَا الْحُلْمُ الْوَحِيدَ الَّذِي انْتَزَعْتُهُ مِنْ سَمَاوَاتِ الْمُسْتَحِيلِ. - سَعِيدَةٌ يَاحَبِيبَتِي؟ لَمْ أَكُنْ أَرْغَبُ فِي إِشْعَارِهِ بِأَنَّهُ حَقَّقَ مُعْجَزَةً. لَمْ يَرِغَبْ مَزَاجِي الرَّاوِقُ فِي فَكِّ رُموزِهَا كَعَادَتِي مَعَهُ. هَلْ نَحْنُ فِعْلًا مُعَلَّقُونَ بَيْنَ سَمَاءٍ وَأَرْضٍ؟! كُنْتُ كَالْبَلْهَاءِ أَصَوِّرُ كُلَّ شَيْءٍ، فَتَكُونُ دَلِيلَ إِنْثَابٍ! - كَمْ مَضَى مِنَ الْوَقْتِ؟ سَأَلْتُهُ مُتَلَهِّفَةً. كُلُّ شَيْءٍ يَهُونُ مِنْ أَجْلِ إِغَاظَةِ (عَلِيَاءَ) وَتَوَابِعِهَا. لَمْ يَشْعُرْ بِوُجُودِي فِي ظِلِّ (عَلِيَاءَ) وَلَا تَتَّبَعُ إِلَّا أَخْبَارَهَا، وَحِينَ تَزَوَّجَتْ. كَانَ زَوَاجُهَا حُلْمَ كُلِّ فَتَاةٍ. حَتَّى زَوْجِي لَمْ يُظْهِرْ أَيَّ شُعُورٍ بِنَشْوَةِ الْإِنْتِصَارِ، بِأَنَّهُ فَازَ بِي مِنْ دُونِ شَبَابِ الْحَيِّ، وَأَنَّهُ اسْتَحَقَّنِي بِجِدَارَةٍ كَمَا فَعَلَ زَوْجُ (عَلِيَاءَ)، لَوْ كَانَ فَعَلَهَا لَمَا جَعَلْتُهَا نِدَا لِي فِي عَقْلِي وَحَيَاتِي. كَانَتْ تَتَعَمَّدُ زِيَارَتِي دَائِمًا لِإِغَاظَتِي وَالنِّكَايَةِ بِي. وَقَرَّرْتُ أَنْ أُعَامِلَهَا بِالْمِثْلِ. انْتَبَهْنَا عَلَى صَوْتِ قَائِدِ الطَّائِرَةِ. صَرَخْتُ فِي زَوْجِي: وَسَادَ الْمَكَانَ تَوَثَّرَ شَدِيدٌ. بَعْضُ الرُّكَّابِ بَدَؤُوا يَسْمُونُ وَيُحَوِّقُونَ. الْأَمْرُ خَطِيرٌ! شَعَرْنَا بِالْمِيلَانِ. كَانَ الْمَطَرُ يَهْطُلُ فِي الْخَارِجِ. انْكَمَشْتُ كَفَّارَةً مَذْعُورَةً. وَتَلَوْنُ بِكُلِّ الْأَلْوَانِ إِلَّا لَوْنَ الْحَيَاةِ. وَبَدَأَ يَقْرَأُ وَيُرَدِّدُ الْآيَاتِ وَالْأَدْعِيَةَ. سَيَغْفِرُ مَاذَا؟ مَا أَكْثَرَ ذُنُوبِي وَأَبْشَعُهَا؟ آه. لَيْتَنِي مَانَكَا سَلْتُ عَنْ صَلَاةِ الْفَجْرِ حَتَّى خَرَجَ وَقْتُهَا. وَلَمْ أَجِبْهُ عَلَى الْاسْتِدَانَةِ. يَقُولُونَ إِنَّ رُوحَ الْمَيِّتِ الْمَدِينِ لَا تَصْعَدُ إِلَى سَمَاءِ رَبِّهَا، فَدِيُونُهُ تُكْبَلُهُ وَتُقَيِّدُهُ حَتَّى لَوْ كَانَ شَهِيدًا. وَاحْتَمَلَ سَلَاطَةَ لِسَانِي وَقَلَّةَ عَقْلِي. لَا أَذْكَرُ أَنَّهُ ضَرَبَنِي يَوْمًا أَوْ أَهَانَنِي. بَلْ عَلَى الْعَكْسِ كَانَ يَتَمَنَّى إِرضَائِي. فَمَا كَانَ سَيَحْدُثُ مَا حَدَثَ. لَيْتَهُ أَوْقَفَنِي عِنْدَ حَدِّي، إِذَا أَمْسَكَ بِحِزَامِهِ، مَا أَكْثَرَ أَخْطَائِي! تَذَكَّرْتُ يَوْمَ نَهَرْتُ جَارَتَنَا الْأَرْمَلَةَ وَوَصَمْتُهَا بِأَقْبَحِ الصِّفَاتِ حِينَ جَاءَتْ تَطْلُبُ مُسَاعَدَةً مِنْ زَوْجِي. كُنْتُ أَظُنُّهَا تُخْطِطُ لِخُطْفِ زَوْجِي. «لَا». رَجَّةٌ جَدِيدَةٌ. أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. تَذَكَّرْتُ حَدِيثًا نَبَوِيًّا، «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ» هَلْ سَادَخَلُهَا؟ وَذُنُوبِي؟! وَأَفْكَارِي الشَّيْطَانِيَّةُ؟! سَمِعْتُ خَطِيبَ الْجُمُعَةِ يَقُولُ: إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاسِعَةٌ. فَدَخَلْتُ الْجَنَّةَ. سَأَتُوبُ وَأُنِيبُ يَا رَبُّ. بَدَأْتُ أَتَشْهَدُ. لَا أَذْري كَمْ مَرَّةً مِنَ الْوَقْتِ حَتَّى انْسَابَ صَوْتُ قَائِدِ الطَّائِرَةِ يُبَشِّرُنَا بِتَجَاوُزِ الْمَطَبَّاتِ الْهَوَائِيَّةِ. عَادَتِ الدِّمَاءُ تَجْرِي فِي أَوْصَالِنَا مِنْ جَدِيدٍ. تَنَفَّسْتُ الصُّعْدَاءَ. شَعَرْتُ بِحُنُوقٍ غَرِيبٍ عَلَى زَوْجِي الْحَبِيبِ. كَانَ خَائِفًا عَلَيَّ وَظَلَّ يَرْقُبُنِي بِآيَاتِ اللَّهِ وَيُهْدِي مِنْ رَوْعِي. حَاوَلْتُ أَنْ أُغْمِضَ عَيْنِي. لَا يَزَالُ بَعْضُ الْقَلْقِ وَالْخَوْفِ يَسْرِي فِي أَوْصَالِي. السَّاعَةُ جَاوَزَتْ الرَّابِعَةَ فَجَرًّا. وَصُولُنَا لِمَالِيزِيَا سَيَكُونُ فِي السَّاعَةِ السَّادِسَةِ صَبَاحًا. بَدَأَتْ الطَّائِرَةُ تَقْتَرِبُ مِنْ أَجْوَاءِ الْعَاصِمَةِ. كَانَ مَنْظَرًا خَلَابًا. الْبَسَاطُ الْأَخْضَرُ يَمْتَدُّ هُنَا وَهُنَاكَ. الْبُيُوتُ الْخَشَبِيَّةُ بِأَسْفُفِهَا الْحُمْرِ. أَخَذَتْ عَجَالَاتُهَا تَنْزِلُ عَلَى أَرْضِ الْمُدْرَجِ الْوَاسِعِ حَتَّى اسْتَقَرَّتْ. كُنْتُ أَسْبِقُ زَوْجِي فِي النَّزُولِ وَمُعَانَقَةِ هَوَاءِ الْمَدِينَةِ الْغَافِيَةِ فِي مِثْلِ هَذَا الصَّبَاحِ النَّظِيفِ. لَمْ أُرَدْ. أَدْرْتُ الْأَرْقَامَ الَّتِي أَحْفَظُهَا. لَيْتَكَ كُنْتَ مَعِي.